المبحث الخامس

الارتجال

قد يبدو على كلام القدامى في الارتجال شيء من الاضطراب[١]، الذي منشؤه عدم التحديد. إلا أن الذي يُحصَّل من كلامهم فيه، أنهم يعنون به غالباً الاختراع اللفظي أو المعنوي. وذلك بأن ينطق المتحدث بكلمة جديدة لم تسمع منه من قبل، أو يستعمل كلمة معروفة، ولكن بدلالة جديدة غير معروفة ونظرة في كتب اللغة القديمة تدلنا على هذا قلناه. وقد سماه ابن جني الارتجال[٢] ونبه عليه أبو بكر[٣] السراج، وسماه (اختراعاً)، قال: «ويجوز عندي أن يخترع المُسَمِّي اسماً لم يسمعه». وذلك في حديثه عن الأعلام.

وكان بعض الفصحاء من الرواة واللغويين يرتجلون ألفاظاً أو صيغاً لم ترد في كلام العرب ويخترعونها. وقد عقد ابن جني لها في (الخصائص) باباً سماه «باب الشيء يسمع من العربي الفصيح لا يسمع من غيره»، فحكى عن أحمد بن يحيى ثعلب، أنه قال: «حدثني بعض أصحابي عن الأصمعي أنه ذكر حروفاً من الغريب، فقال: لا أعلم أحداً أتى بها، إلا ابن أحمر الباهليّ، منها، (الحَبْر)، وهو الملك. وانما سمي بذلك – أظن – لأنه يجبر بجوده، وهو قوله:

إسْلَمْ براووقٍ حُبِيتَ بِهِ ... وانعِمْ صباحاً أيُّها الجَبْرُ[٤]

فيتضح من هذا أن ابن أحمر استعمل (الجَبْر) بدلالة أخرى. وهذا ما يصح أن نسميه «الارتجال المعنوي». ومثله «المأنوسة» استعملها للدلالة على النار، وذلك قوله: كما تطاير من مأنوسَةَ الشَرَرُ[٥].

على أن ابن دريد[٦] ينقل عن قوم من أهل العلم أن ملكاً من ملوك كندة كان يقال له أبو الجبر. فهل كُنِّي بهذه الكنية لأنه يجبر بجوده، كما احتمل ابن جني،

---

(١) من أسرار اللغة ص ٩٥.

(٢) الخصائص ٢/ ٢٤.

(٣) الاشتقاق ص ٣٦.

(٤) الخصائص ٢/ ٢١.

(٥) الخصائص ٢/ ٢٣.

(٦) الاشتقاق ص ٣٠٥ – ٣٠٦.

أم إنه اسم وليس بصفة؟ إننا لا نستبعد أن تكون صفة سمّي بها هذا الملك لكثرة ما يجبر من حاجات الناس وغوائلهم بجوده.

وهناك ارتجال الألفاظ والصيغ، وهو الذي نسميه «الارتجال اللفظي»، وذلك نحو: «كأسٌ رَنَوناةٌ» أي دائمة، وذلك قوله:

بَنَّتْ عليهِ الملكَ أطيافها كأسٌ رَنَوناةٌ وطِرفٌ طِمِرّ

ومنها: «الديدبون» بمعنى: اللهو، و«مارِيَّة» أي لؤلؤيّة؛ لأنها بلون اللؤلؤ، و«الحَيْرَم» وهو البقر. قال الأصمعي: ما جاء به غيره[1]. يعني بذلك ابن أحمر الباهليّ.

وقد احتمل ابن جني لذلك احتمالين: أحدهما: أن يكون ابن أحمر الباهلي قد أخذ هذه الألفاظ عمّن ينطق بلغة قديمة، وأنه تفرّد بالسماع منه، فلم يشاركه فيه أحد. والآخر: «أن يكون شيئاً ارتجله ابن أحمر، فإن الاعرابي ـ يقول ابن جني ـ إذا قويت فصاحته، وسَمَت طبيعته، تصرّف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله».

وبذلك انتهى التحليل والتعليل بابن جني الى حقيقة لغوية، هي كالقانون اللغوي العام. ثم احتج له بصنيع رؤبة بن العجاج وأبيه، إذ كانا «يرتجلان ألفاظاً لم يسمعها ولا سبقاها».

ورجع ابن جني بعد هذا الى قاعدة أبي عثمان المازني التي سبقت الإشارة إليها عند الكلام على القياس، وهي: «ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب».

بل إنّ أبا علي النحوي بن أحمد بن عبد الغفار شيخ ابن جني أجاز الارتجال في مثل هذا النوع. وهو: «أن تبني اسماً وفعلاً وصفة ونحو ذلك، من ضرب، فيقول: ضربب زيدٌ عمراً، وهذا رجلٌ ضَرْبَبٌ». أو قل: إنك تستطيع أن تصوغ فعلاً رباعياً من ذلك الفعل الثلاثي، يكون على وزن فَعْلَل، وتصوغ صفة على وزن فَعْلَلٌ.

---

(١) الخصائص ٢/ ٣٢ ـ ٣٣.

وقد حمل هذا الكلام ابن جني على أن يسأل شيخه أبا عليّ سؤال المتحيّر المتعجّب : « أفتَرتجل اللغة ارتجالاً »؟ وكان لأبي علي جواب في ذلك[١] .

وقد تساءل الدكتور ابراهيم أنيس[٢] عن مراد ابن جني من سؤاله هذا ، بعد أن رآه سؤالاً إنكارياً ، أيريد بالارتجال « الاختراع من العَدَم ، أم يعني فقط ذلك الاشتقاق المقيس على شيء معهود مألوف »؟ . فاحتمل بعد هذا التساؤل أنه « كان يُقرّ فكرة الارتجال ، قاصراً هذا الحق على الفصحاء من العرب » ، دون غيرهم من المولدين من أمثال شيخه أبي علي .

وضرب الدكتور لذلك مثلاً بما ذكره ، من أن الأصمعي روى كلمات غريبة عن ابن أحمر الباهليّ ، وهو ما بيّناه سالفاً . وضرب له الأمثلة من كتاب الخصائص .

على أن الدكتور إبراهيم أنيس كان يرى أن ابن جني « خلط بين الكلمات المخترعة والمستعارة من لغة أخرى والمشتقة اشتقاقاً جديداً قياساً على كلمات مألوفة الصورة » . ورأى أن من تلك الكلمات التي وصفها ابن جني بالاختراع ، ما يمكن إرجاعه الى الفصيلة (السامية) ، وذلك مثل كلمة (الجبر) بمعنى المَلك ، التي استشهد لها ببيت من الشعر . إذ رجح أنها في العبرية والسريانية والآرامية ، ففيها جميعاً بمعنى الرجل والسيد وصاحب القوة والنفوذ . ورجح أيضاً أن إجادة البحث في أصول تلك الكلمات التي يقال إنها مخترعة سيوصلنا الى أنها تنتسب الى لغة من اللغات ، أو لهجة من اللهجات ، وأنها ليست من الارتجال في شيء[٣] .

على ان ما ذهب إليه ابن جني في الارتجال ، ذهب إليه أيضاً معاصره ابن فارس ؛ إذ كان لا يرى لأهل عصره الحق في الارتجال ، بل كان يقصره على العرب الفصحاء الأوائل . يقول : « وليس لنا اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوه »[٤] وهو مذهب يرتبط بالقياس عنده .

ومهما يكن من أمر ، فإن الذي يبدو من كلام القدامى أنهم لم يقصروا عملية الارتجال اللغوي على العصر الجاهلي ، وانما رأوه ممكناً في العصور الاسلامية الأولى التي يصح الاحتجاج بما ورد فيها من آثار اللغة ونصوصها .

---

(١) الخصائص ٢ / ٢٥ .
(٢) من أسرار اللغة ص ٩٦ .
(٣) من أسرار اللغة ٩٦ – ٩٧ .
(٤) الصاحبي ص ٦٧ .

وقد اجازوا أن يكون القرآن عَلَماً مرتجلاً لهذا الكتاب المعجز المبين المنزل على النبي محمد (ص)، في جملة ما قالوا من أقوال في دلالته اللغوية، مثل كونه مصدراً مرادفاً للقراءة، وهو الأقوى، أو مشتقاً من القَرْء، أي: الجمع، أو من القرائن جمع قرينة[1]... الى ما هنالك من أقوال.

ومعلوم في كتب النحاة ما يعرف بالعلم المرتجل، وهو ما لم يكن قبل العَلَمية كلمة من كلمات اللغة، مثل: سعاد، وأدد، وهو عكس العَلَم المنقول، وهو: ما أفاد بصيغته معنى في اللغة قبل استعماله للعلمية، كفَضْل وأسد، على ماورد في شرح ألفية ابن مالك[2].

ومعلوم أيضاً أن القرآن نزل بلغة العرب، وأن الألفاظ التي فيه كانت معروفة لديهم. ولم يكن ثَمّ تغاير إلا في دلالة طائفة من الألفاظ التي عرفت بالألفاظ الاسلامية، أو الاصطلاحية، كالصلاة والصوم والربا والزكاة والإيمان والكفر والنفاق، وما إليها، فإنها وإن كانت مستعملة في كلام العرب قبل نزول القرآن، إلا أن القرآن منحها دلالات جديدة، كما هو معلوم.

فالرأي السائد لدى العلماء أن ليس هناك ألفاظ غريبة على العرب، يصح أن يقال إنهم لم يستعملوها. وانما خفي على عدد منهم دلالة طائفة من الالفاظ، لكونها على الأصح لهجات. فلم يكن عدد من الصحابة على علم بها، من مثل (فاطر) و (بديع) و (الرقيم) و «حنانا» التي روي فيها عن ابن عباس (رض) أنه ما كان يعرفها حتى سمع بعض الأعراب تتحدث بها، فعرف من فحوى كلامهم دلالاتها[3]. ومثل ذلك روي عن عمر وأبي بكر (رض) في معنى (الأبّ) من قوله تعالى: «وفاكهةً وأبّاً» [عبس: ٣١]، إذ روي أنها حين خفيت عليهما دلالتها، لم يتكلفا تفسيرها[4]. فهذا مما لم يعرفوه لأنه إما لفظ مشترك وإما من اللهجات.

إلا أن احد المستشرقين وهو نولدكة زعم أن (التَسْنيم) الوارد في قوله تعالى: «ومزاجُهُ من تَسْنيم. عيناً يشربُ بها المُقرَّبون» [المطففين ٢٦ ـ ٢٧] من الألفاظ التي جاء بها القرآن. ولم تعرفها العرب قبله. على أساس أنها غير موجودة في الشعر الجاهلي واللغات الجزرية القديمة[5]. مع أن هذه اللفظ عربي في

---

(١) الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٧.

(٢) ١/ ١٠٩، ط ١٣.

(٣) أبو عبيد: غريب الحديث ٤/ ٤٠١ ـ ٤٠٢. وتفسير الطبري عند تفسير هذه الالفاظ.

(٤) الزركشي: البرهان ١/ ٢٩٥.

(٥) السامرائي: فقه اللغة المقارن ص ١٧٥.

رأي الأقدمين ، وقد جعله الفراء دالاً على العلو ، فقال : « من تسنيم : من ماء يتنزل عليهم من مَعالٍ »[١]. وهذا شبيه بقولنا : تسنَّم فلان كذا ، أي ارتقاه وعلاه . وقال الراغب الأصفهاني[٢]: « قيل هو عين في الجنة رفيعة القدر » . وبيّن أن السياق فسّره بذلك ، وهو قوله تعالى بعده مباشرة : « عيناً يشرب بها المُقَرَّبونَ » .

وبذلك يصبح قول نولدكة متروكاً ؛ لأنه لا دليل عليه . فكلمة تسنيم يمكن أن تكون لفظة مشتقة من مادة (س ن م) الدالة في صيغها المختلفة على معنى العلوّ ؛ فسَنام كل شيء : أعلاه ، وتَسَنَّمَه علاهُ ، وأسْنَمتِ النارُ إسناماً : إذا ارتفع لهبها[٣]. ولهذا قال الزجّاج : ومن تسنيم : أي من ماء مُتَسَنِّم ، عيناً تأتيهم من عُلُوٍّ تتسنّم عليهم في الغُرف[٤].

رأي المحدثين في الارتجال :

حاول عدد من اللغويين الأوربيين في القرن التاسع عشر أن يعرفوا مدىٰ تأثير انعزال الأطفال ـ انعزالاً تاماً أو شبه تام عن المجتمع ـ في ارتجالهم اللغة ، غير أن نتائج محاولاتهم لم تُؤد الى نتيجة واضحة يمكن أن يقال عنها إنها علمية . غير أن جسبرسن Jesperson يؤكد أن طفلين لو عُزلا في مكان لنشأت لهما لغة مستقلة ذات أصول وقواعد . وقد استنتج ذلك من طفلين توأمين تركتهما أمهما عند عمة لها صَمّاء لا تنطق . فنشأت لديهما عبارات وألفاظ غامضة سمعها منهما جسبرسن نفسه . فوجد أنها تتصل اتصالاً وثيقاً بلغة البيئة ، إلا أنها مبتورة ممسوخة ، حذفت منها أصوات ، وعوض عنها بأخرىٰ . ووجد بعضها مما يمكن أن يسمى: تقليد الاصوات "Onomatopoeia"[٥]. فهذا ما يذهب إليه اللغويون المحدثون .

أما أصحاب علم النفس ، فقد أبَوا أن يعترفوا بشيء اسمه الارتجال في لغة الأطفال . وكان زعيم هذه الطائفة العالم النفساني ووند Wumdt ، الذي يقول : « ليست لغة الطفل إلا أثراً لبيئته . والطفل في هذا الأمر لا يعدو أن يكون أداة سلبية » .

---

(١) الفراء : معاني القرآن ٣/ ٢٤٩ .
(٢) الراغب : مفردات ألفاظ القرآن ص ٢٥١ (سنم)
(٣) و (٤) اللسان ١٥/ ١٩٨ (سنم)
(٥) من أسرار اللغة ص ١٠٣ .

وبذلك انقسم المحدثون في موضوع الارتجال على فريقين : فريق يؤيده بالتجارب الخاصة والأمثلة ، وفريق يرفضه رفضاً تاماً ، زاعمين أن ما يراه المؤيدون للارتجال ، ليس إلا نوع من عبث الأطفال باللغة المألوفة المعهودة[١].

وإذا بحثنا عن حقيقة الارتجال في ضوء ما تقدم ، ألفينا الدكتور إبراهيم أنيس يردّ سرّ ذلك الخلاف بين الفريقين الى اختلافهم في تحديد المراد من كلمة الارتجال والاختراع في اللغة .

فالذين رفضوه فهموه على أنه الخلق من العدم ، وبذلك ضيَّقوا من دائرة معناه ، وقصروه على تلك الكلمات الجديدة في لفظها ومعناها .

ويرى الدكتور ابراهيم أنيس أيضاً ، أنه ليس من المفيد أن نحاول البحث عن أثر الارتجال في نشأة الكلام الإنساني الأول ، لنعرف هل كان الإنسان الأول يلجأ الى الارتجال في وضع الكلمات ، لأن البحث عن تلك النشأة اللغوية قد كاد الآن يشبه البحث في ما وراء الطبيعة . ومن العسير الوصول في شأنها الى رأي مؤكد أو مرجح . وكذلك لا تكفي تلك الأمثلة التي رويت عن ارتجال الأطفال واختراعهم الكلمات اختراعاً ، وإمكان نشأة لغات مستقلة من مثل هذا في البيئات المتعددة . فهذا لا يكفي في التدليل على حدوث[٢] الارتجال .

إلا أن ستيفن أولمان[٣] يذكر في إطار التصور بأن الانسان هو الذي وضع اللغة ، إن تخميننا قد يكون صادقاً إذا افترضنا أن حاجة الانسان الى الافصاح عن ذاته قد لعبت دوراً مهماً في خلق اللغة ، وابتكار الكلمات . على الرغم من أن الدافع الأول الى هذا الخلق ، قد يكون ناتجاً عن الحاجة الى الاتصال ، والتبادل الاجتماعيين . ويذكر أن المشكلة الحقيقية تكمن في المرحلة التي تقع ما بين ابتكار الكلمات بدافع الحاجة ، وبين صيرورتها عرفية تقليدية مستقرة في الكلام .

ويذكر ستيفن أولمان[٤] أيضاً أن ابتكار كلمات جديدة ، إنما هو إحدى الوسائل التي يسلكها المتكلم كي يسدّ بها النقص الذي في الثروة اللفظية للغة ، حين تدعو الحاجة الى ذلك .

---

(١) و (٢) من أسرار اللغة ص ١٠٤ – ١٠٥ .
(٣) دور الكلمة في اللغة ص ٨٨ .
(٤) دور الكلمة في اللغة ص ١٣٤ – ١٣٥ .

ويرى أن « تقليد الأصوات ومحاكاتها هو المصدر الضخم لابتكار الكلمات » ، وأن هذه المبتكرات الجديدة قد تبقى مقصورة على إطار الاستعمال الفردي ، الذي ظهرت فيه أول ما ظهرت . وقد ينتشر عدد منها في مناطق محددة ، وربما ينتقل عدد منها الى اللغة ليستقر فيها .

وهذا التصور كما ترى قائم على نظريات نشأة اللغة عند الغربيين المحدثين وهي التي أشرنا إليها في المبحث الخاص بنشأة اللغة ، إذ كان فريق منهم يذهب الى أن مبدأها يتعلق بمحاكاة الأصوات الطبيعية ، أو انطلاق الاصوات التعجبية ، وما الى ذلك .

ويذكر أيضاً - أنه مهما تكن أهمية المصادر التي يأتي منها الارتجال ، فإن من الصعب أن تسد هذه المصادر النقص الذي لا ينقطع عن الظهور في الكلام الإنساني دائماً وأبداً . وأن مجال هذه المصادر ضيّق ، تكاد تكون محصورة في الانطباعات الحسّية ، وما ينتج عنها من كلمات ، وفي الكلمات ذات الألوان العاطفية أو الصبغة الفكاهية . لذلك كان من الضروري في العصر الحديث البحث عن أساليب وطرق أخرى غير طريق الارتجال ، تكون أكثر تنوعاً ودقة لمقابلة حاجة التقدم العلمي والفني والعقلي في الحياة . ورأى أن أسهل هذه الطرق وأوضحها « استغلال المادة الموجودة في الفعل في خلق كلمات جديدة »[1] أو بعبارة أخرى : استغلال طريق الاشتقاق لخلق تلك الكلمات الجديدة . وهو ما تحدثنا عنه في المبحث الثاني من هذا الفصل ، وبيّنا أنه من أهم طرق نمو اللغة وتطورها ، ومواكبتها للحياة الجديدة بكل معطياتها العلمية وغير العلمية .

لقد لاحظ الغربيون المحدثون أن طائفة من الكلمات تستعمل في اللغات الاوربية استعمالاً خاصاً ، ثم تصبح هذه الألفاظ المرتجلة بعد فترة من الزمن جزءاً من العامية ، فيسمى عندهم إذ ذاك "Slang" ، على نحو ما نجد مثلاً في انكلترا وغيرها من الدول . وقد تصبح تلك الكلمات جزءاً من الفصحى بعد أن تنال احترام الناس وقبولهم . فذلك هو التطور الطبيعي - فيما يذكر الدكتور ابراهيم أنيس[2] - الكلمات المرتجلة ، وهو أنها تمر في مراحل ويتعاقب عليها ظروف ، ثم لا يرقى منها الى لغة المعجمات إلا القليل أو أقل من القليل .

---

(١) دور الكلمة في اللغة ص ١٣٦ .

(٢) من أسرار اللغة ص ١٠٦ - ١٠٧ .

غير أن هذا لم يحدث في العربية ، لأن اللغويين العرب أحاطوها بسياج حصين في كل العصور . ولذلك قنعت تلك الكلمات المرتجلة بالشيوع في لهجاتنا الحديثة ، وصارت جزءاً مما نسميه بالعامية أو الدارجة ، ولم ترتق الى لغة المعجمات : اللغة العربية الفصحى .

وعلى هذا ، فإن الارتجال حقيقة في اللغة لا يمكن إنكارها ، ولكنه في الواقع محدود الأثر ، قليل الحدوث ، إذ قد يمر جيل أو جيلان قبل أن نظفر بكلمة أو كلمتين ، يمكن أن نعزوهما الى الارتجال . وهذا حدث في عربيتنا الفصحى في عصورها الأولى ، ولا مجال لحدوثه اليوم ؛ إذ أن عصر تلقّي اللغة من مظانها قد ذهب . وليس للرواية من سبيل ، لأن عصرها انتهى . وكل ما يمكن أن يحدث في أيامنا هذه ضربٌ من الاقتراض والاشتقاقات والقياس ، والنحت أحياناً ، والتجوز البلاغي الذي نجده في كلام عدد من أدبائنا وشعرائنا المجيدين ، والكتّاب البارعين . على حين أن الارتجال : « ابتداع الكلمات على الأنماط القياسية » ، كما عرفه لغوي عربي معاصر هو الدكتور تمام حسّان[١] .

فهذا في الواقع ليس ارتجالاً ؛ لأن الارتجال يعني وضعاً لغوياً لم يسبق إليه المتكلم . ولندرة الكلمات المرتجلة في اللغة ، يرى معظم الباحثين من المحدثين ـ وكما مرّ علينا في كلام ستيفن أولمان ـ أن الارتجال أضعف طرق الوضع اللغوي ونمو اللغة[٢] . إذ أنه لم يكن أوسعها انتشاراً ولا أكثرها أثراً[٣] .

---

(١) الأصول ص ٢٨٥ .
(٢) نفسه ص ١٠٨ .
(٣) تمام حسان : الأصول ص ٢٨٦ .